في الصور الثلاث للفيلسوف*

جيل دولوز

ترجمة عبد الحي أزرقان

تبدو صورة الفيلسوف، شعبية كانت أم علمية، أنها قد وضعت من طرف الأفلاطونية التي اعتبرته كائنا منشغلا بالصعود، يخرج من الكهف فيسمو ويتطهر كلما ازداد سموا. لقد أقامت الأخلاق والفلسفة، أي المثل الأعلى في الزهد وصورة الفكر، علاقات وطيدة جدا فيما بينهما في إطار هذه "النفسية المتسمة بالصعود". بهذه النظرة أيضا ترتبط الصورة الشعبية القائلة بكون الفيلسوف يعيش في السماء، ولكن بهذه النظرة أيضا ترتبط الصورة العلمية التي تعتبر سماء الفيلسوف سماء عقلية تبعدنا عن الأرض بقدر ما تجهل قوانين هذه الأخيرة. غير أن كل شيء يسير في كلتا الحالتين وفق العلو (حتى ولو تعلق الأمر بعلو الشخص في سماء قانون الأخلاق). يظهر حينما نتساءل: ما معنى أن نتوجه في إطار الفكر؟ يعني أن هذا الأخير يفترض هو ذاته محاور وتوجيهات ينمو وفقها، وأنه يتوفر على جغرافيا قبل أن يتوفر على تاريخ، وأنه يرسم أبعادا قبل أن يبني أنساقا. يشكل العلو الشرق الأفلاطوني بالذات. هكذا تتحدد العملية التي ينجزها الفيلسوف باعتبارها تصاعدا أو تحويلا، بمعنى باعتبارها الحركة التي تتحول نحو مبدأ العالم العلوي الذي تصدر عنه، والتي تتحدد وتمتلئ وتعرف ذاتها بفضل مثل هذا الدافع الداخلي. لن نقارن الفلسفات

---

* نص مقتطف من كتاب **منطق المعنى**

بالأمراض، ولكن هناك أمراض فلسفية بالمعنى الدقيق للكلمة. فالمثالية مرض وراثي مرتبط بالفلسفة الأفلاطونية، كما أنها تعتبر، نتيجة تعاقب صعوداتها وسقطاتها، الشكل الكآبي والهوسي للفلسفة ذاتها. يلهم الهوس أفلاطون ويقوده. إن الجدل هو هروب المثل. وكما يقول أفلاطون عن المثال"إنه يهرب أو يتلاشى..."، هناك في موت سقراط ذاته شيء من الانتحار المرتبط بالانهيار.

لقد شك نيتشه في هذا التوجيه من الأعلى وتساءل عما إذا لم يكن بعيدا عن تمثيل كمال الفلسفة، وعما إذا كان بالأحرى يشكل انحطاطها وتحريفها اللذين بدءا مع سقراط. يضع نيتشه بهذا مسألة توجيه الفكر كلها موضع تساؤل: ألا ينشأ فعل الفكر داخل الفكر وينشأ المفكر داخل الحياة وفق أبعاد أخرى؟ يتوفر نيتشه على منهج ابتكره هو: لا ينبغي الاكتفاء ببيوغرافيا ولا ببليوغرافيا وإنما ينبغي التوصل إلى نقطة سرية حيث يكون الشيء ذاته نكتة الحياة وحكمة المعرفة. إن الأمر شبيه بالمعنى الذي يسند في أحد وجهيه إلى حالات الحياة وفي الوجه الأخر يتشبث بقضايا الفكر. وتوجد هنا أبعاد ولحظات وأمكنة، أي نواحي جليدية أو محرقة لا تكون معتدلة أبدا، أي جغرافيا غريبة تميز نمطا من التفكير، ولكنها تميز أيضا أسلوبا في الحياة. ربما حصل عند ديوجين لرس Diogène Laërce، في أفضل صفحاته، إحساس مسبق بهذا المنهج، ألا وهو إيجاد حكم حيوية تكون أيضا نكتا للفكر- ملحمة الفلسفة. أنبادوقليدس والإتنا Etna، هاهي ذي نكتة فلسفية. إنها في مستوى موت سقراط، ولكنها تعمل بالضبط عبر بعد آخر.لا يغادر الفيلسوف السابق على سقراط الكهف، إنه يعتبر، على العكس من ذلك، أن نفاذنا إليه ناقص وأننا لم نتوغل بداخله بما فيه الكفاية. إن ما يرفضه هذا الفيلسوف عند تيزي Thésée هو الخيط:" فيم يهمنا طريقكم الذي يصعد، وخيطكم الذي يؤدي إلى الخارج، يؤدي إلى السعادة والفضيلة...تريدون إنقاذنا بفضل هذا الخيط؟ ونحن نلتمس منكم بإلحاح: اشنقوا أنفسكم بهذا الخيط !". لقد أقام الفلاسفة السابقون على سقراط الفكر في الكهوف والحياة في العمق. إنهم استقصوا الماء والنار. إنهم اشتغلوا بالفلسفة اعتمادا على

ضربات المطرقة مثل أنبادوقليدس الذي كسر التماثيل، مطرقة الجيولوجي ومطرقة المتعاطي لكشف المغاوير. لا يقذف البركان الذي يخترق أنبادوقليدس وسط طوفان من الماء والنار سوى بشيء واحد، نعله الرصاصي. هناك في مقابل أجنحة النفس الأفلاطونية نعل أنبادوقليدس الذي يبرهن على أنه كان من الأرض وتحت الأرض وعلى أنه كان المواطن الأصلي. وهناك في مقابل التحليق الأفلاطوني ضربة المطرقة السابقة على سقراط، وفي مقابل التحويل الأفلاطوني الهدم السابق على سقراط. تبدو الأعماق المتداخلة في بعضها البعض أنها تشكل بالنسبة لنيتشه التوجيه الحقيقي للفلسفة، وأنها الاكتشاف الحاصل قبل مجيء سقراط، اكتشاف ينبغي تناوله من جديد من طرف فلسفة تنتمي إلى المستقبل مع استعمال كل قوى حياة هي أيضا فكر، أو قوى لغة هي أيضا جسم ". هناك وراء كل كهف كهف آخر أكثر عمقا، ولا بد أن يكون هناك كهف آخر أكثر عمقا وعالم أكثر شساعة وغربة، أكثر غنى تحت السطح، هناك هوة تحت كل عمق ووراء كل تأسيس". كانت هناك في البداية السكيزوفرينية. إن الفلسفة السابقة على سقراط سكيزوفرينية بالمعنى الفلسفي الدقيق.إنها العمق المطلق المحفور في الأجسام والفكر، والذي يجعل هولدرلين يعرف الوقوع على أنباذوقليدس قبل نيتشه. إننا نلتقي في التناوب الأمباذوقليدسي المشهور الكامن في تكامل الحقد والحب، من جهة بجسم الحقد، أي الجسم بمثابة مصفاة ومنقسم إلى أجزاء، وهو عبارة عن "رأس بدون عنق وذراع بدون كتف، وعيون بدون جبهة"، ومن جهة ثانية بالجسم الفاخر وكذلك العديم الأعضاء أي "مشكل كله من قطعة واحدة"، جسم بدون أعضاء وبدون صوت وبدون عضو جنسي. كما أن ديونيزوس يمد لنا وجهيه الاثنين، جسمه وهو مفتوح وممزق، ورأسه وهو عديم التأثر وبدون أجهزة، أي ديونيزوس مبتور ولكن أيضا ديونيزوس لا يمكن النفاذ إليه.

لم يلتق نيتشه مجددا بالعمق إلا باقتحامه للسطوح. ولكنه لا يلزم السطح، حيث يبدو له هذا الأخير بالأحرى ما ينبغي الحكم عليه انطلاقا من وجهة نظر محددة لعين تنفذ إلى الأعماق. لا يهتم نيتشه إلا قليلا بما يحدث بعد أفلاطون معتبرا إياه استمرارية ضرورية

لانحطاط طويل. في حين يحصل لدينا - طبقا للمنهج ذاته- إحساس بنهوض صورة ثالثة للفلاسفة، وبأنهم هم الذين تنطبق عليهم بالخصوص كلمة نيتشه: كم كان أولئك الإغريق عميقين نظرا لكونهم سطحيين بشكل كبير! وهؤلاء الإغريق المصنفون في الصف الثالث ليسوا حتى إغريقيين بالمعنى الكامل لكلمة إغريقي. لا ينتظرون أن يأتيهم الخلاص من أعماق الأرض الأصلية ولا من السماء أو المثال. إنهم ينتظرون مجيئه من الجنب، أي من الحدث ومن الشرق،أي من حيث تطلع كل الأشياء الجديدة كما يقول كارولCarroll. لقد انطلق صنف جديد من الفلاسفة ونمط جديد من النكت مع مجيء الميغاريين والكلبيين والرواقيين. لنقرأ أجمل فصول ديوجين لاريس ذلك المتعلق بديوجين الكلبي والآخر المتعلق بكريزيب Chrysippe الرواقي. إننا نرى فيه تطور نظام عجيب من التحريضات. من جهة يأكل الفيلسوف بشراهة فتحصل لديه التخمة، ويستمني في الساحة العمومية وهو نادم على عدم القيام بالمثل فيما يتصل بالجوع. إنه لا يدين الممارسة الجنسية بين الأقارب، أي مع الأم أو الأخت أو البنت. إنه يتقبل أكل اللحوم البشرية - وبالطبع فإنه أيضا زاهد وعفيف إلى أقصى درجة. ومن جهة أخرى فإنه يلتزم الصمت حينما تطرح عليه أسئلة، أو إنه يضربكم بعصا، أو يمدكم بعلبة من عود الثقاب يكسرها فيما بعد بتوجيهها نحوكم، ودائما بواسطة ضربة العصا - ومع ذلك فإنه يقدم أيضا خطابا جديدا ولوغوسا جديدا تحركه مفارقات وقيم ومعاني فلسفية جديدة. إننا نشعر جيدا بأن هذه النوادر لم تعد أفلاطونية ولا منتمية إلى الفلسفة السابقة على سقراط.

إننا أمام توجيه جديد للفكر بأسره ولما يعنيه التفكير. لم يعد هناك عمق ولا علو. إن الاستهزاءات الكلبية والرواقية من أفلاطون لا تعد ولا تحصى، إذ يتعلق الأمر دائما بإقالة المثل وبالبرهنة على أن ما هو غير جسمي لا يوجد في العلو وإنما في السطح، وأنه ليس بالعلة الأكثر علوا وإنما هو نتيجة سطحية بامتياز، كما أنه ليس بماهية وإنما هو حدث. وستتم البرهنة، على الجبهة الأخرى، على أن العمق وهم هضمي يكمل الوهم البصري المثالي. فعلا، ماذا تعنيه هذه الشراهة وهذا الدفاع عن الممارسة الجنسية بين الأقارب،

وعن أكل اللحوم البشرية؟ لم يعط لارس أي تفسير بكريزيب عن هذا الموضوع باعتباره مشتركا بين كريزيب وديوجين الكلبي، ولكنه اقترح تفسيرا مقنعا لديوجين بوجه خاص:" لم يكن يرى في أكل اللحم البشرية، أي في عادة شعوب أجنبية، فظاعة كبيرة، قائلا إن العقل السليم يقتضي أن يكون كل شيء في كل شيء وفي جميع الأنحاء. هناك لحم في الخبز وخبز في الأعشاب. تدخل هذه الأجسام وأجسام أخرى كثيرة في كل الأجسام عبر قنوات مخفية وتتبخر مجموعة أخرى كما يبين ذلك في مسرحيته المعنونة بتيست Thyeste. إن كانت، على أي، كل التراجيديات المنسوبة إليه من تأليفه هو...". تقر هذه الأطروحة، الصالحة أيضا بالنسبة للممارسة الجنسية بين الأقارب، أن كل شيء يكون خليطا في عمق الأجسام. هذا مع العلم أنه ليست هناك قواعد يمكن، بالاعتماد عليها، الحكم على خليط ما بأنه قبيح بدل الحكم على سواه. فعلى العكس مما كان يعتقده أفلاطون، ليس هناك مقياس علوي بالنسبة للأخلاط، ولا تآليف بين المثل ستسمح بتحديد الأخلاط الجيدة والأخلاط القبيحة. وعلى عكس الفلاسفة السابقين على سقراط، ليس هناك مقياس محايث قادر على تثبيت نظام خليط ما وتطوره في أعماق النمو. تقدر قيمة كل خليط بقيمة الأجسام المتداخلة فيما بينها وبالأجزاء المتعايشة فيما بينها. كيف لا يمكن لعالم الأخلاط ألا يكون عالم عمق أسود يصبح كل شيء مباحًا بداخله؟

كان كريزيب يميز بين نوعين من الأخلاط، الأخلاط الناقصة التي تفسد الأجسام، والأخلاط الكاملة لتي تتركها كما هي وتجعلها تتعايش في كل أجزائها. لا شك أن وحدة العلل الجسمية فيما بينها تحدد خليطا تاما عبارة عن سائل يكون كل شيء في إطاره عادلا في لحظة معينة هي لحظة حضوره في الكون. غير أن الأجسام المتناولة داخل خصوصية حاضرها المحدود لا تلتقي مباشرة وفق نظام علتها الذي لا يصلح سوى للكل، واعتبارا لجميع التآليف في آن واحد. لهذا السبب يمكن اعتبار كل خليط جيدا أو سيئا: جيدا في أطار نظام الكل، غير أنه ناقص وسيٍ بل ممقوت في إطار نظام الالتقاءات الجزئية. كيف يمكن التنديد بممارسة الجنس بين الأقارب وبأكل اللحوم الآدمية في هذا المجال الذي تكون

فيه الانفعالات القوية ذاتها أجساما تلج أجساما أخرى، وحيث تكون الإرادة الخاصة شرا جذريا؟ لنأخذ مثلا تراجيديات سينيك Sénèque الخارقة. إننا نتساءل عما هي وحدة الفكر الرواقي مع هذا الفكر التراجيدي الذي يضع فوق الخشبة، لأول مرة، كائنات محكوم عليها بالشر، فكر جسم بشكل مسبق ودقيق مسرح عهد إليزابيث الأولى. لا يكفي تكوين بعض الفروق ذات المنحى الرواقي لصنع الوحدة. إن ما هو رواقي حقيقة هنا هو اكتشاف الانفعالات الجسمية والأخلاط الجهنمية التي تنظمها أو تتلقاها: سموم محرقة وولائم الأكل المفرط. ليست الوجبة المأساوية لتيست Thyeste موضوع ديوجين المفقود فحسب، وإنما هي موضوع سينيك Sénèque أيضا، وهو محافظ عليه لحسن الحظ. تبدأ الأقمصة الطويلة والمسمومة بحرق الجلد ونهب السطح، ثم تصل إلى ما هو أعمق داخل مسافة تمتد من الجسم المثقوب إلى الجسم المبدد. تكون هناك في كل أنحاء عمق الأجسام أخلاط سامة تغلي، وشعوذات استنطاق الأموات تعد، كما تعد أيضا أغذية وممارسات جنسية بين الأقارب. لنبحث عن مضاد للسموم وعن الاختبار المضاد: إن بطل تراجيديات سينيك وكل الفكر الرواقي هو هرقل. هذا مع العلم أن هرقل يحدد دائما في إطار علاقاته بمجالات ثلاث: الهوة الجهنمية والعلو السماوي وسطح الأرض. لم يجد في العمق سوى الأخلاط البشعة، وفي السماء سوى الفراغ أو حتى الكائنات السماوية المروعة التي تعوض الكائنات الجهنمية. ولكنه يعتبر خادم السلام في الأرض والساهر على قياس مساحتها. إنه يدوس حتى سطح المياه. إنه يستعين بجميع الوسائل في سبيل تحديد صعوده إلى السطح أو نزوله إليه؛ إنه يحضر إلى السطح كلب الجحيم والكلب السماوي، كما يحضر إليه ثعبان الجحيم وثعبان السماء. لا يتعلق الأمر بديونيزوس في العمق، ولا بأبولون في السماء، وإنما يتعلق بهرقل السطوح في صراعه المزدوج مع العمق ومع العلو: إننا أمام إعادة توجيه الفكر كله، إننا بصدد جغرافيا جديدة.

يتم تقديم الرواقية أحيانا باعتبارها تنجز وراء أفلاطون نوعا من الرجوع إلى الفلسفة السابقة على سقراط، رجوع إلى العالم الهرقليطي مثلا. يتعلق الأمر بالأحرى بإعادة تقويم

كلي لعالم ما قبل سقراط. يدفع الكلبيون والرواقيون هذا العالم، بتأويلهم له اعتمادا على فيزياء الأخلاط في العمق، نقول يدفعون به في جزء منه نحو كل الاختلالات المحلية التي تتصالح مع الخليط الأكبر أي مع وحدة العلل فيما بينها. إنه عالم الرعب والقسوة، عالم الممارسة الجنسية بين الأقارب والفظاعة في الأكل. وهناك بدون شك جانب آخر: إن ما يمكن أن يصعد إلى السطح من العالم الهرقليطي، وسيتلقى وضعا آخر جديدا كل الجدة، هو الحدث في اختلافه من حيث الطبيعة عن العلل الجسمية، والأيون في اختلافه من حيث الطبيعة عن الكرونوس الملتهم. تتلقى الأفلاطونية، في موازاة مع هذا الأمر، توجيها مماثلا جديدا كل الجدة: سيرى أفلاطون نفسه، هو الذي كان يسعى إلى إقبار عالم ما قبل سقراط وإلى كبته بشكل أفضل وسحقه تحت كل ثقل العلوات، سيرى نفسه مقالا من علوه الخاص، ويسقط المثال على السطح باعتباره مجرد نتيجة لاجسمية. إنه الاكتشاف الرواقي الكبير الذي كان ضد الفلاسفة السابقين على سقراط وضد أفلاطون في آن واحد: إننا أمام استقلالية للسطح انفصلت عن العلو والعمق لتقوم ضدهما ؛ ثم أيضا اكتشاف الأحداث اللاجسمية، معاني كانت أم ظواهر خاصة، أحداث لا يمكن اختبارها في الأجسام العجيبة ولا في المثل العالية. كل ما يحدث وكل ما يقال يحدث ويقال في السطح. وهذا الأخير لا يقل عطاء فيما يخص الاستكشاف والمعرفة، وربما كان أكثر من العمق والعلو اللذين يعتبران بمثابة لا معنى. ذلك لأن الحدود الرئيسية تغيرت. إنها لم تعد تمر عبر العلو بين الشمولي والجزئي، ولا عبر العمق بين الجوهر والأعراض. ربما ينبغي اعتبار الخط الجديد مجدا لأنتستين Antisthèneأي خط بين الأشياء والقضايا ذاتها، بين الشيء كما هو والمشار إليه بالقضية، وبين المعبر عنه الذي لا يوجد خارج القضية(لم يعد الجوهر سوى تحديدا ثانويا للشيء، و لم يعد الشمولي سوى تحديدا ثانويا للمعبر عنه.)

يشكل كل من السطح والستار والبساط والمعطف الأمور التي يستقر عليها الكلبي والرواقي ويقيمانها حولهما. لقد أصبح المعنى المزدوج للسطح، واستمرارية فكرة الوجه والخلف يحلان محل العلو والعمق. لا يوجد شيء وراء الستار غير الأخلاط الشائنة،

وليس هناك شيء فوق البساط غير السماء الفارغة. يظهر المعنى ويتشكل فوق السطح، إن كنا نحسن، على أي، بسط هذا الأخير، بطريقة تجعله يشكل حروفا من الغبار، أو شيئا شبيها بالبخار فوق الزجاج حيث يمكن للإصبع أن يكتب. تعوض الفلسفة القائمة على ضربات العصا لدى الكلبيين والرواقيين الفلسفة القائمة على ضربات المطرقة. لم يعد الفيلسوف كائن الكهوف ولا نفس أو طائر أفلاطون، وإنما أصبح حيوان السطوح التافه، أي القرادة والقملة. لم يعد الرمز الفلسفي هو جناح أفلاطون ولا النمل الرصاصي لأنباذوقليس، وإنما أصبح هو المعطف المزدوج لأنتستين Antisthène وديوجين. إنه العصا والمعطف مثل هرقل بهراوته وجلده الأسدي. كيف يمكن تسمية العملية الفلسفية الجديدة من حيث كونها تتعارض في آن واحد مع الارتداد الأفلاطوني والهدم المميز للفلسفة السابقة على سقراط؟ ربما يمكن نعتها بكلمة الانحراف الخلقي الذي يلائم على الأقل نسق تحريضات هذا النمط الجديد من الفلسفة إن كان صحيحا أن الانحراف يفيد فنا غريبا خاصا بالسطوح.